حرارة الصيف

بين العلم والأدب

للأستاذ ضياء الدخيلي

يعاني اليوم قراء (الرسالة) في أنحاء الشرق الأدنى سطوة عامل فيزيائي يقسو على سكان بعض البلاد العربية ويخف بعبثه بآخرين — ذلك هو وبل الأمواج الحرارية التي تصل شواظها في هذه الفترة من الزمن فتنصب على رؤوسنا من هذا الكوكب الملتهب الذي سجر لظاه رب السموات. فلنتحدث عن حرارة الصيف وما قال عنها العلم الحديث مخصصين عنايتنا بأثرها في أجسامنا، ثم فلنعرض شكوى الأدباء وعويل الشعراء من وهج بلاد العرب وكيف كانوا يتقون عنفها في المملكة العربية قبل أن ينعم أديسون وإخوانه — على البشرية بالكهرباء ومراوحه السحرية، ومولدات الثلج في لحظات تنقلب خطو الأماني عبر الدياجي إلى نجوم الوجود.

لعل من مظاهر الرفق وعوامل العطف على القارئ الكريم أن لا تقحمه أبحاث علماء الفيزياء في الحرارة فالمثل يقول: (لا تكن أنت والزمان عليها). فليس من لطف الإنسانية أن نخوض به غمار تلك الأبحاث المتعبة التي يشكو اليوم من ويلاتها الطلبة وهم على أبواب الامتحانات فلننفض عن حديث ما تسببه الحرارة من تمدد الغازات والسوائل والأجسام الصلبة، ولنضرب صفحاً عن معاملي التمدد الحجمي والطولي فلا نريد أن نبني جسوراً فولاذية في رأس القارئ الكريم وهو يرزح تحت سطوة الحر في بلاد العرب، ولنترك للطلبة استظهار الحرارة النوعية وبحث الانصهار والجمود تلك الأبحاث التي اعتادوا أن يجمدوها في حافظتهم لساعة الامتحان الحرجة حتى إذا انتصروا في لهو العطلة الصيفية انصهرت معلوماتهم، فكأنما كانت تماثيل من الثلج أذابتها حرارة الصيف وتلاشى قانون (بويل) كما غاب نفس بويل قبله في عالم العدم وتصاعدت المعلومات متطايرة بعد أن تكاثفت لخزنها لأوقات الامتحان ولنصم آذاننا عن تعريف الفيزيائيين للحرارة بأنها (عبارة عن طاقة حركية للجزيئات) ولكن لنصغ إلى ذلك الأديب يعرف لنا الحرارة تعريفاً شعرياً. وقديماً عد اليونان في علم المنطق من أساليب البرهنة — القياس الشعري وضربوا له المثل بقولهم: (الخمر صبة مروعة) فالحق أن التعريف الشعري والبرهان الشعري أقوى تأثيراً في نفوس الناس من الأبحاث الدقيقة القائمة على الإحصاءات، فأكثر الذين اندفعوا إلى الهيام بالخمر جذبتهم أخيلة الشعراء الذين وصفوها بأنها ياقوتة ذائبة تطير بالنفوس بأجنحة الخيال في عالم الأفراح. ولو قالوا إنها سم يشل مراكز التفكير العليا لكانوا أقرب إلى الحقيقة. ولكنهم يبعدون عن تفكير الجماهير العمياء التي لا يقودها غير عاطفتها. وإذن فلنترك الأديب يحدثنا عن الصيف وحره فيقول (كما أورده النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب).

(أوقدت الظهيرة نارها، وأذكت أوارها. فأذابت دماغ الضب، وألهبت قلب الصب. هاجرة كأنها من قلوب العشاق، إذا اشتعلت بنيران الفراق، حر تهرب له الحرباء من الشمس، وتستجير بعراك الرمس، لا يطيب معه عيش، ولا ينفع معه ثلج ولا خيش، فهو كقلب المهجور، أو كالتنور المسجور)

هذا مما قيل في حرارة الصيف نثراً، وأما الشعر فحسبك منه ما يلي: قال ذو الرمة:

وهاجرة من حرها واتقد ... نصبت لحاجبها حاجبي

تلوذ من الشمس أطلاؤها ... لياذ الغريم من الطالب

وتسجد للشمس حرباؤها ... كما يسجد القس للراهب

(في المنجد: حاجب الشمس ناحية منها وأول ما يبدو منها مستعار من حاجب العين، وحواجب الشمس أنحاؤها) وقال مسكين الدارمي:

وهاجرة ظلت كأن ظباءها ... إذا ما اتقتها بالقرون سجود

تلوذ بشؤبوب من الشمس فوقها ... كما لاذ من حر السنان طريد

وقال ابن النقيب:

في زمان يشوي الوجوه بحر ... ويذيب الجسوم لو كن صخرا

لا تطير النسور فيه إذا ما ... وقفت شمسه وقارب ظهرا

وبود النسر النضير به لو ... أنه من لحائه يتعرى

وقال أيضاً:

يا ليلة بت بها ساهداً ... من شدة الحر وفرط الأوار

كأنني في جنحها محرم ... لو أن للموتة مني استتار

وكيف لا أحرم في ليلة ... سماؤها بالشهب ترمي الجمار

وقال آخر :

ويوم سموم خلت أن نسيمه ... ذوات سموم للقلوب لوادغ

ظللت به أشكو مكابدة الهوى ... فكوزي ملآن ومالي فارغ

وقال محمد بن أبي الشباب شاعر اليتيمة :

وهاجرة تشوي الوجوه كأنها ... إذا لفحت خدي نار توهج

وماء كلون الزيت ملح كأنه ... بوجدي بقلبي أو بهجرك يمزج

وقال الثعالبي :

رب يوم هواؤه يتلظى ... فيحاكي فؤاد صب متيم

قلت إذ مسك حره حر وجهي ... « ربنا اصرف عنا عذاب جهنم »

ولقد تقدم من ذلك الأديب أن وصف حر الصيف بأنه : (لا يطيب معه عيش ولا ينفع معه ثلج ولا خيش) . فما هو الخيش ؟ يحدثنا الطبري وياقوت في معجم الأدباء إنه كانت عادة الأكاسرة أن يطين سقف بيت في كل يوم صائف فتكون قيلولة الملك فيه وكان يؤتى بأطباق الخلاف (وهو صنف من الصفصاف طوالا فتوضع حول البيت ويؤتى بقطع الثلج الكبار فتوضع ما بين أضعافها . وكانت هذه عادة الأمويين أيضاً ؛ ولكن في عهد المنصور العباسي اتخذت طريقة أخرى للتبريد فكانوا ينصبون الخيش الغليظ ولا يزالون يبلونه بالماء فيبرد الجو (في المنجد : الخيش نسيج خشن من الكتان)

وكان أهل الترف في ذلك العصر يستعيضون عن دخول السراديب بنصب قبة الخيش أو بيت الخيش .

وفي لطائف المعارف للثعالبي (وكان الخيش ينصب على قبة ثم اتخذت بعدها الشرائع فاتخذها الناس) . ويحكي المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم ، في معرفة الأقاليم) : أنه رأى في دار عضد الدولة البويهي بشيراز بيوت الخيش يبلها الماء على الدوام بواسطة قنوات حولها من فوق .

قال الأستاذ آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) يظهر أن طريقة استعمال الخيش وسيلة لتبريد الهواء كانت شائعة في بغداد جداً ؛ إذ يحكى عن أحد القواد في القرن الرابع الهجري أنه لم ير فرقة من الجند أتت من بغداد أهلا للقيام بغزوة هامة لأنهم في رأيه قد ألفوا بيوت دجلة وشرب النبيذ والثلج وبيوت الخيش المبلل وسماع القيان كما نقل ذلك ابن مسكويه .

وقال الغزولي في مطالع البدور : وكان يستعمل في البيوت صيفاً مروحة تشبه شراع السفينة تعلق في سقف البيت ويشد بها حبل يديرها وهي تبل بالماء وترش بماء الورد ؛ فإذا أراد الرجل أن ينام وقت القائلة جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجيء فيهب منها نسيم بارد طيب .

وجاء في جمهرة الإسلام للشيزري وكتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي (أنه كانت حراقات دجلة التي يستعملها رجال الدولة في غدوهم ورواحهم يعد فيها الثلج ويطلى عليها الخيش المبلل بالماء وكانت ترخى على الخيش ستور الكرابيس) .

وقد رأيت في كتاب أساس البلاغة للزمخشري ما نقله عنه في تاج العروس من أن (الحراقة هي سفينة خفيفة المر) . أما الكرباس فهو كما في المنجد : الثوب الخشن جمعه كرابيس والكلمة من الدخيل .

وكان أهل بغداد ينامون في ليل الصيف على سطوح البيوت يدل على هذا ما حكاه معظم المؤرخين كابن الأثير في الكامل وابن الجوزي في المنتظم وغيرهما — من ظهور حيوان يسمى الزرنب في عام ٣٩٤ هـ كان بحسب زعم الناس يأكل الأطفال بالليل من على السطوح وما كان حيواناً بل وهماً نشأ من وجود اللصوص . ويقول ابن الجوزي في المنتظم إنه في تموز من سنة ٣٠٨ هـ برد الجو حتى نزل الناس من السطوح وتدثروا باللحف ؛ هذا في مدينة بغداد أما في آمل وهي كما في المعجم لياقوت أكبر مدينة بطبرستان في السهل لأن طبرستان سهل وجبل — فقد كانت السطوح في آمل مسنمة لكثرة الأمطار صيفاً وشتاء كما نقل ذلك الاصطخري في مسالك الممالك .

أما في اليمن فيحدثنا أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه صفة جزيرة العرب — فكان الغالب على صنعاء البرد حتى كان إذا اشتد بها الصيف ودخل الرجل ليقيل على فراشه لم يكن له بد من أن يدثر لأن البيوت باردة بسبب القصة (الجصة) التي تشيع بها (تطين) بواطن البيوت لأن الجص في صنعاء يخلط بمادة غروية هناك فيظهر البناء بعد جفاف الجص بريق جوهري كبريق المصقول من الجواهر ، وتشبه الجدران في بياضها الفضة . وربما دخل الرجل في صنعاء في المخدع على فراشه وأطبق عليه الباب وأسبل الستور والسجف فلا يتغير ضياء البيت لما في الجدران والسقف من الرخام ؛ بل إنما كان في السقف رخامة صافية

نظر هوم الطائر بظله عليها إذا حاذاها وتؤدى الرخامة لمان الشمس إلى القصة فتقبلها بجوهرها وبريقها .

ولكن فى سامراء من العراق كانوا يستخدمون السراديب تحت الأرض . قال آدم متز : لقد كشفت لنا حفائر سامراء عن طريقة بناء الدور عند أهل العراق فى القرن الثالث الهجرى حيث كانت تشتمل على سراديب للسكنى مهيأة بوسائل التهوية . ولا نجد فيما بين أيدينا من أخبار القرن الرابع فى العراق ما يدل على استعمال السراديب للسكنى فى فصل الصيف ولا تشير إلى ذلك أية حكاية من الحكايات الكثيرة التى ترجع إلى ذلك العصر

وفى كتاب العيون أنه كان السرداب فى ذلك العصر عبارة عن مكان تحت الأرض فيحكى مثلا أن الخليفة المقتدر أمر بحفر سرداب لمؤنس وأن مؤنساً وقع فيه ومات ، هذا ما نقله ولكن الذى فى كتب التاريخ أن مؤنساً هو الذى قتل المقتدر على يد أصحابه .

ويقول عربب وكان عند رجل فى داوه سرداب تحت الأرض عليه باب من حديد . بل يحكى عن مروج الذهب أنه فى عهد المنصور سير جماعة من أبناء على إلى الكوفة وحبسوا فى سرداب تحت الأرض لا يفرقون فيه بين ضياء النهار وسواد الليل . وفى مقاتل الطالبيين عن رجل كان مسجوناً مع يحيى العلوى فى عهد الرشيد ، وكان الرشيد يعذبه تعذيباً مؤلماً حتى مات من وقع السياط ، وكان اسم السجن المطبق وهو تحت الأرض وكان من شدة ظلامة لا يعرفون أوقات الصلاة فيه .

وإذن فالسراديب لم تكن فى صدر الدولة الإسلامية متعارفاً استعمالها لاتقاء الحر فى بغداد ، وإن كانت موجودة فى السجون التى يحبس بها العلويون الذين كان بنو العباس يخشون من ثوراتهم

قال آدم متز .

ويرجع أصل عادة اتقاء الحر الشديد بالنزول فى السراديب إلى بلاد آسيا الوسطى حيث يحكى لنا الرحالة [وانج بن تى فى عام ٩٨١ م أن بعض أهل تلك البلاد يسكنون فى الصيف غرفاً تحت الأرض . أما فى بلاد الإسلام لذلك العهد فقد كانت مدينة زرنج أكبر مدن سجستان ومدينة ارجان بفارس أول مدينتين اتخذ أهلها فى الصيف سراديب تحت الأرض يجرى فيها الماء كما نقل ابن حوقل فى كتابه صورة الأرض .

قال ياقوت فى معجم البلدان إن أرض سجستان كلها رملة سبخة والرياح فيها لا تسكن أبداً ولا تزال شديدة تثير رحيهم وطحنهم كله على تلك الرحى .

وفى القرن الخامس الهجرى يذكر الرحالة الفارسى ناصر خسرو أن من خصائص مدينة ارجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها وإن الماء يجرى تحت الأرض وفى السراديب وفى أشهر الصيف يستروح الناس فيها .

ويذكر القزوينى بعد ذلك بقرون (إن من محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون فى حر الصيف إلى الدخول فى جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد) . وأما اليوم فقد ضربت مدينة النجف الأشرف فى العراق الرقم القياسى فى استعمال السراديب ، وذلك لأنها واقعة على أرض مرتفعة فى الصحراء قد جذب المسلمين إليها قبر الإمام على (ع) فازدحم حوله علماء الإسلام فقامت حركة علمية جبارة وقصدها طلاب العلم فى أطراف العالم الإسلامى ، ففيها الطلبة من أنحاء إيران والعراق ومن لبنان وسورية والحجاز والصين والهند وأفغانستان وسمرقند وبخارى وغير ذلك فهى مقر (الأمم الإسلامية المتحدة) وإن هؤلاء المهاجرين يعانون من قسوة الصيف ولدفع هاجرة الصحراء — أعنف التعذيب لو لم يتفنن النجفيون فى تحت السراديب تحت الأرض فيحفرون فى طبقات الأرض حفراً عميقاً جداً حتى يصلوا إلى طبقة صخرية يسمونها (السن) فيضربونها بالمعاول ضرباً قوياً عنيفاً حتى يثقبوا تحتها ممراً فينفذون إلى طبقة رملية سريعة الإزالة وإن كان فى تضاعيفها صخور كبيرة فإذا حفروا تحتها فسحة تسع أهل البيت برفاهية أووا إليها فى هاجرة الصيف فإذا البرد الشديد الذى لا يطاق إلا بالتدثر باللحف على حين أن الحرارة الملتهبة على سطح الأرض تشوى الوجوه ؛ وبذلك يستغنى النجفيون عن الثلاجات ولاسيما إذا وصلوا تلك السراديب بالآبار حيث تجهزهم بالهواء الذى من أعلى . ولعل هذه العادة اقتبست من أواسط آسيا حيث يكثر فى النجف المهاجرون فى تلك الأنحاء الإسلامية . وتبلغ السراديب أرقى درجات الاتقان فى مدارس الفقهاء ولاسيما مدرسة السيد كاظم اليزدى التى من محاسن مرافقها (الزنبور) وهو طريق للهواء يهبط من أعلاه ثم يمر تحت أرض السرداب فيكون تحتها تجويفاً يقلل الرطوبة فيه . ثم إن ذلك الطريق ينتهى بثقب صغير فى وسط أرض السرداب فيخرج منه الهواء اللطيف البارد . وهكذا يحتمى الطلبة فتطيب لهم دراسة الفلسفة والمنطق والرياضيات وعلوم الأدب والشريعة وقد أنتجوا الكتب الكثيرة فيها .

(البقية فى العدد القادم)

ضياء الرفيعى